الرحلات القديمة حول افريقية

تاريخ اكتشافها الاسلامي

٢

ذكر بليني المؤرخ الروماني سنة ٧٠ للمسيح ان التبابعة ملوك اليمن عرفوا جميع ممالك افريقية الشرقية وجزرها وكان لهم عليها شيء من السلطة وكانوا يتجرون مع اهلها بالافاويه والطيوب المختلفة وقد حرموا على السوقة من عامتهم الاتجار بهذه الاصناف مع اليونان والرومان لئلاَّ يغشوها على زعمهم

ولما ظهر الاسلام رحل كثيرون من العرب في القرنين الاولين للهجرة الى سواحل افريقية الشرقية والشمالية فملكوا تونس وطرابلس الغرب واجتاز كثيرون منهم صحارى القيروان وليبية وتوغلوا في داخلية البلاد وبعضهم ذهبوا الى السودان من طريق مصر وقنا وكانت القصير مرفأ لمراكبهم يجتازون منها مضيق باب المندب في البحر الاحمر ويرتادون السواحل الشرقية حتى وصل بعضهم في بدء تاريخ الهجرة الى سواحل جزيرة مدغشكر جنوباً واسسوا في شمالها مملكة عربية لم تزل آثارها وقلاعها وبقايا شعوبها موجودة حتى الآن . ويعرفون هناك بالسقلابة ولغتهم عربية قديمة مشوبة بالحميرية والسواحلية وعندي صورة كتاب ارسلهُ سميكوه رسول سلطانة السقلابة في شمالي مدغشكر سنة ١٢٥٠ هـ الى السيد سعيد بن سلطان امام مسقط وعمان تطلب منهُ ان يحمي بلادها من مراكب الفرنسيس فارسل هذا الامام وقتئذٍ اسطولهُ العماني بجيش كبير واحتل جزيرة موكين وعقد معاهدة مع السلطانة المذكورة ووزائها على ان تكون بلادها تحت حمايتهِ ويدفع اهلها اليهِ الخراج غرشاً عن كل شخص واحد واحصوا الذكور منهم فكانوا ثلاثين الفاً وهذا مآل تلك المعاهدة :

بسم الله الرحمن الرحيم : نقول نحن الفقراء الى الله تعالى نهكيو بن بتيك الوزير وبوبه بن فنهانك بان مولاتنا صاحبة الاجلال والاقبال السلطانة سميكوه بنت السلطان رسول فوضتنا ان نعطي سيدنا سعيد بن سلطان امام مسقط جزيرة بوكين وان كل الناس الخاضعين لسلطانها من الوزراء والامراء وكبار السقلابة يكونون تحت حماية مولانا المذكور . وقد رضينا ان نسلم لهُ عن كل راس من السقلابة قرشاً واحداً وقدرناهم بثلاثين الف رجل ..... وتعهدنا باصلاح بنيان القلعة وتسليمها لهُ .... الخ ..

وقال بعض مؤرخي العرب انهُ في القرن الرابع الهجرة كانت كل سواحل افريقية الشرقية و بلاد الزنج التي تليها معروفة عند العرب فاستوطنوها واتجروا مع اهلها بالعاج والذهب والطيوب العطرية وجلبوا منها الرقيق وهم الذين سموا بلادها ولنهرها وجبالها باسمائها المعروفة الآن . وكانت بلاد ملندة وممبسة ومقدوشو و بثة وسفالة وكلوا و بيا وزنجبار ممالك مستقلة زاهية عامرة وسلاطينها ذوي جاه وسطوة وصولة

وقال حميد بن محمد بن زريق العماني في تاريخهِ « الحقيقة القحطانية » (وهو كتاب كبير خطي مفرد بمكتبة زنجبار السلطانية تكرم علي باعارتهِ المرحوم السيد حمود بن محمد السلطان الاسبق)

« لما تولى العراق الحجاج بن يوسف الثقفي من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان الاموي حارب اهل عمان وفيها يومئذٍ الاميران سعيد وسليمان الازديان الجلنديان وبعد حروب طويلة جمعا ذراريهما وسوادهما وخرج معهما خلق كثير من بني الازد ولحقوا ببلاد الزنج واستوطنوا افريقية وجزيرة بثة »

ومن ذاك الوقت تاسست ممالك العرب الاسلامية في تلك البلاد . وقال المسعودي في جغرافيتهِ « ان على مسيرة يومين بحراً من زنجبار جزيرة قمبلو التي اسلم اهلها على يد العرب »

وذكر بعضهم ان العرب كانوا يسافرون الى الهند وسواحل افريقية من الاسكندرية فكانوا يركبون في النيل الى الفسطاط ومنها على الماء نحو اثني عشر يوماً الى قفط ومنها يركبون الابل مدة خمسة عشر يوماً الى شط يرتيقة (وهي القصير على البحر الاحمر) ثم يركبون البحر بالسفن في زمن الصيف قبل شروق الشعرى وبعد مسيرة ثلاثين يوماً يصلون الى قانة ببلاد اليمن بعد اجتيازهم باب المندب ومنها يذهبون اما الى بلاد الزنج وممبسة جنوباً او الى كلكوت الهند فيصلونها بعد اربعين يوماً »

ويظهر من قول ابن الاثير في تاريخهِ الكامل . ان الزنوج اسلموا في بدء ظهور الاسلام وذكر ان كثيراً من الزنوج اموا اليمن والبصرة في ولاية الحجاج الثقفي (سنة ٧٥ هـ) وولوا عليهم رجلاً منهم دعوهُ اسد الزنج فافسدوا ونهبوا الثمار فامر الحجاج زياداً رئيس شرطتهِ ان يقاتلهم فسيَّر عليهم جيشاً مع ابنهِ حفص فقاتلهم ولكنهم تغلبوا عليهِ وقتلوهُ وهزموا اصحابهُ فارسل عليهم جيشاً آخر فهزمهم

ثم امتدت شوكة العرب في كل داخلية افريقية شمالاً وغرباً وشرقاً حتى بلاد الكونغو والزولو وكفروريا (الكفرة) ولم تزل آثارهم هناك الى الآن . وقد عثر بعض الاثريين

الانكليز سنة ١٩٠٣ في شمال رودسيا شمالي الترنسفال وبالقرب من بلاد الكفرة على قبر عربي قديم وعليه كتابة بالحرف الحميري تنبئ ان اسم الميت سلاّم وانهُ توفي سنة ٩٥ هجرية (٧١٤ م) و ينتظر العلماء اكتشاف آثار اخرى عربية مهمة في تلك الاصقاع النائية . واكتشف الالمان منذ بضع سنوات بالقرب من دانغا تحت انقاض مدينة فوماكو القديمة داخل افريقية الشرقية كتابات عربية قديمة فنقلوها الى متحفهم في برلين . وفي خرائب وقلاع ممبسة وملينده وبثة آثار كثيرة وكتابات عربية لم تزل محفوظة الى الآن

واستدل العلماء من ذلك ان العرب من بدء الهجرة عرفوا اكثر بلاد افريقية ووصلوا الى منابع النيل وتوغلوا في بحيراتها وغاباتها ومجاهلها وكانت حتى اواسط القرن الماضي يجهلها الافرنج . ووطئت اقدام الفاتحين من العرب تلك البلاد السحيقة قبل ان تطأها اقدام السياح المتأخرين

وقرأت في كتاب منقول عن تاريخ فتوحات البرتوغال وهم اصدق شاهد لانهم اخذوا في القرون الوسطى اكثر بلاد افريقية من العرب انهُ « بينما كانت سفن البرتوغال سائرة عند شطوط افريقية الجنوبية والشرقية (بين رأس الرجا ونتال) وجدوا العرب شاغلين المرافىء كلها بمراكبهم الكثيرة وقد جمعوا احمالاً وافرة من الذهب اخذوها من بلاد كفرورو يا ووضعوها في سفنهم يريدون نقلها الى بلادهم » وحقيقة الامر انهُ كان للعرب تجارة واسعة في العصور الخالية في افريقية كلها

وقد اثبت اصحاب الخطط وبينهم المقريزي ان كل سواحل افريقية الشمالية والشرقية والجنوبية اكتشفها العرب بعد الفتح الاسلامي بزمن وجيز على عهد الخلفاء الامويين والعباسيين اي في ابان مجد مملكة العرب وسعة سلطانها ثم توغلوا في مجاهل البلاد حوالي النيل والنيجر والكونغو وكان عرب عمان وحضرموت والشحر والبحرين اول من عرف طريق الهند من عهد سحيق وفي بدء الفتوحات الاسلامية اجتازت مراكبهم سواحل افريقية كلها وملكوا الصومال وجوبا وممبسة وزنجبار وموزمبيق وجزائر الكومور ولم تزل بقايا العرب في جزائر مدغسكر وفيليبين واسسوا فيها الممالك واقاموا فيها الحصون والقلاع ووسعوا تجارتهم في تلك الجهات فاتجروا بالذهب وريش النعام والعاج والبهارات والطيوب واما النخاسة فكانت منتشرة عندهم انتشاراً عظيماً يأتون بالرقيق من داخلية البلاد وينقلونهُ بمراكبهم الى العراق والشام ومصر والاندلس وكان للنخاسة اسواق عظيمة في مصر ودمشق وبغداد والبصرة وقرطبة واشبيلية

وزار ابن بطوطة الرحالة الشهير كثيراً من هذه الممالك الاسلامية الافريقية وجال في تمبكتو ولامو ومقدشو وكلوة وشفالة وغيرها ووصف اهلها وعاداتهم ولقي من سلاطينها الاكرام والحفاوة والهدايا الكثيرة ووصفهم بالتقوى والامانة وقرى الضيفان . وكان ذلك قبل ان يتملكها البرتغاليون بمدة قرن ونصف

ولما ضعفت شوكة العرب بفقدان العصبية وضعف شأن الخلافة العباسية ببغداد وبانتقالها الى الفاطميين بمصر والعلويين في مراكش وبجزائر الغرب وتفرقت الممالك الاسلامية العربية بين الدول التركية والتترية والشركسية سقط مجد العرب وتفرقت كلمتهم ونبذوا العلوم والمعارف وتركوا اسباب التجارة واشتغلوا عنها بالمنازعات القومية والحروب الاهلية ورضخوا لنير الاستعباد فسادهم الجهل وضاعت البلاد من ايديهم

وقد اشتد ساعد الاسبان والبرتوغال في الاندلس فطردوا العرب منها فرحلوا الى فاس ومكناسة وتفرقوا في الجزائر ومراكش وتونس ولما قويت شوكة الافرنج هناك قام البرتوغاليون وجهزوا السفن والرجال في اواخر القرن الرابع عشر وارسلوها الى سواحل افريقية الغربية والجنوبية والشرقية وطردوا العرب منها ديتري تقولا

الاوهام الشائعة عن الطقس[1]

ربما كان الحديث عن الطقس من حرّ وبرد وصحو ومطر ورطوبة وجفاف اكثر الاحاديث تداولاً بين الناس عامتهم وخاصتهم . ولا غرابة ان يكون ذلك كذلك لما للطقس من التأثير في الانسان منذ ظهوره على وجه هذه الارض . فان تقلباته كانت ولا تزال ذات اثر بيّن في اعماله وطريقة معيشته . ومع طول تمرسه بالطقس وتقلباته لم يفز قبل القرن الماضي فوزاً حقيقيًّا بمعرفته معرفة علمية ومعرفة العوامل المتسلطة عليه والنتائج التي تنتج عنها . وكل ما عرف حتى الآن قليل من كثير . فان المتيورولوجيا (علم الطقس او الاحداث الجوية) والكليماتولوجيا (علم الاقليم) تقدما تقدماً بطيئًا فلذلك حامت الخرافات والتخرصات والاحاديث الملفقة حول الطقس حتى يومنا هذا . وكثير من هذه الخرافات يمكن الابانة

(١) الطقس حالة الهواء من صحو ومطر وحرّ وبرد وغيرها من الظواهر الجوية . والكلمة يونانية وتعريبها حديث اذ لم ترد في معجم من المعجمات القديمة كلسان العرب وتاج العروس والمصباح وغيرها . ولما ذكرت في محيط المحيط للبستاني وقيل فيه انها معرب نكسبس باليونانية . وقد وقع اختيارنا عليها لاننا لم نعثر على لفظة عربية ترادفها